سهلت له حياته الباريسية فهم باريس فأجاد رسمها ببراعة القصصى والشاعر الفنان ، وكانت الطبقات البائسة المتألمة هى الغالبة فى جميع قصصه . وفى قصته « الاغنياء الحقيقيون » Vrais Riches ترى لونا من الصوفية يشعّ من أدب كوبيه ففى هذه القصة تراه يؤمن بالمثل القائل : (المال لا يجلب السعادة) فالأغنياء الحقيقيون فى نظره هم أولئك الذين يحتفظون فى أجسامهم بالكنز الذى لا يفنى ، ألا وهو القلب .

وقصة « الجانى » Le Coupable وهى القصة الطويلة الوحيدة التى كتبها تعتبر من أروع أعماله ، وهى قصة أب هجر ابنه وهو ثمرة علاقة بينه وبين فتاة عاملة حين كان طالباً فيندفع الولد الشريد الى الرذيلة ويصل به الأمر الى ارتكاب الجرائم . ثم ينتهى به الحال الى الوقوف أمام المحكمة التى يكون أبوه قاضياً فيها ، فيعترف الأب علناً بانه هو الذى جنى على ولده . والقصة كتبت باسلوب دامع وبطريقة لا يملك القارىء لها نفسه من البكاء والثورة على تلك المآسى التى تحدث فى كل زمان ومكان .

لقد كان فرانسوى كوبيه فاتح الطريق لأدب جديد : أدب الرحمة الواسعة والعطف الصادق على كل متألم بائس فى الحياة ، ولقد صدق أناتول فرانس حين قال عنه : « اذا كانت الثقافة المتوسطة تكفى لفهمه فانه لا بدّ لتذوقه تماماً من ذهن صادق نقى » .

على كامل

غادة الحيط

(موسيقىّ أخفق فى حبّه ونبا به دهره يسير على شاطىء الحيط ، ثم يجلس على صخرة مشرفة على أمواجه التى تشبه الجبال ويمسك عوده وينشى)

كوكبٌ قد لاحْ ينشدُ الاصباحْ
ونسيم هبّ مثل عطرٍ فاحْ

عبد الغنى الكتبى

بلبـــلٌ غنى أنعشَ الارواحْ
أوْقِفُوا الليـلا فيـه قلبى ناحْ
وبه دمعى بشجونى باحْ
مذ رأى حظى فوق أرضٍ ملاحْ

« • »

أيهـا العودُ قم فحدِّثنى
بأن أحبـابى وبدا بينى
ما ديارى غـدت لهـم بديارٍ لا ولا قلبهم غدا لىَ مأوى !
قد سـلونى وكان آخر عهدٍ أننـا لا نريد فى الحب سلوى
بارك الحب فى شباب لديهـم وشبابى ثوى بعيـداً وأذوى
صاح ما صنعى فى الذى أهوى
ليت يدرى بى صاحب النجوى!

(عند ذلك يسمع صوتاً من البحر لمغنٍّ غير مشاهد يغنى بطريقه)

أنا أهواه وإن قيـل جفا بل وأهوى معـه ذاك الصدودْ !

واذا ما فرَّ منى كان فى مهجتى أو ناظرى حتى يعودْ !

(فيقوم المغنى ويجرى من مكانه ثم يقف فيسمع من الماء) :

قـل لذى حزنٍ على الشاطىء لا تبك إن أخلف ذو الحب الوعودْ

ربّ قلب زال عنـه حبه بالذى دبره يوماً حسودْ

(عند ذلك ينصت فاذا باحدى بنات الماء تحادث الأخرى)

الأولى :

سمعت بذا الانسى وافى ديارنا ليشكو الينا بعض ما صنع الانسُ

وهام بهـا حبّاً فخانت عهوده وحالت لياليه وطالعه النحسُ

الاخرى :

ولاقت جزاء الغـدر إذْ هام قلبها ورامت وفاءً ، فاستقلّ بها العكسُ

فها هى حيرى تندب الدهرَ حظها وتبكى عليـه كلما طلعت شمسُ

(عند ذلك يطرب الموسيقى وتأخـذه دهشة لا يستفيق منها الا بين أيديهن ، فيلاطفنه الى أن يفرخ روعه ، ثم يقول لهن متضرعاً):

الموسيقى :

أسمعونى يا بنات البحر ما عن حبيبى عندكم شاع وذاعْ

احداهن :

غننا نسمعك عنهـا عجبـاً علنـا نلهو زماناً بالسماعْ

الموسيقى يغنى :

أسمعونى يا بنات البحر ما عن حبيبى عندكم شاعَ وذاعْ

أفِرَاقٌ ماله من ملتقى ؟ ! أم فراق بعده يأتى اجتماعْ ؟!

قد سألتُ الريح عنها فأبت وسألت البحر والأرض اليفاعْ

وسألتُ الصبح عنهـا فانثنى وغدا كالليل مسدولَ القناعْ

احدى بنات الماء :

ضيَّعتْ حظ الهوى منك لِذَا حظها عند الذى تهواه ضَاع

قد رأيتُ الغدرَ من شيمتها ... كِلتُ من غدر بها صاعاً بصاعْ

الموسيقى :

أسمعونى يا بنات الماء ما ... عن حبيبى عندكم شاعَ وذاعْ
يا بنات البحر فيكنّ الوفا ... يا بنات الانس فيكنّ الخداعْ

(عند ذلك تخرج احدى بنات الماء فتحيي رفيقاتها بقولها) :

بنات الماء حيّا الله موجاً ... يكنّ غداً لذى شوق عبيرَا
تبسم مذ رأى منكنّ حسناً ... وولى يملأ الارجاء نورَا !

رفيقاتها بعد أن يقمن اليها :

وحيّا الله مالكة البرايا ... ومن فى الموج أودعت السرورَا

هى :

ألا فرح الأمير اليوم ، هيّا ... اليه نرَ المسرةَ والحبورَا

(عند ذلك يقمن فتدعو احداهنّ الموسيقيّ للنزول الى قاع المحيط قائلة) :

تعالَ الى الموج تلق السرورَ ... فكم قد غضبت من اليابسِ
فمن ضاقت الارض يوماً به ... ففى الموج تسلية اليائسِ
تعال الى الموج عهد الجما ... ل ففيه غدت سلوة اليائسِ
عليه العفاف حريص وما ... سواه لذى الحسن بالحارسِ

(ثم يجذبنه الى الموج فينزل معهن قائلاً) :

وكيف أعيش بغير الهواء ؟

(إحداهن) : تعيش لدنيا بروح الهوى !

(ينشقّ البحر عن ملك واسع بين جنات وأنهار، وبه حفل حاشد لحضور الزفاف ، فيدعى الموسيقى للغناء فيغنى) :

شاهدت فى ثغر لها لؤلؤاً ... والوجه منها وضحاً للنهار
من جندها الموجِ وإمّا بدت ... فالموج منها من صفاه يُنارْ
عرش على الثلج لها قائم ... وآخرٌ ثاوٍ بعمقِ البحارْ

تذيب صبره المرء إمّا بدت فليس للانسان عنها اصطبارْ

(يطرب الجميع فيقول أحد أبناء المحيط) :

عجباً للانس يغشون البحارا !

آخر يجيبه : قيل إن المرء فى الاجواء طارا !

آخر يقول : ما كفاهم دنسوا الأرض فلم

ألق فى أنحائها الاّ عثارا !

ظلموا الفنان منهم فسعى نحو هذا الماء يبغى الانتحارا

(يسأل الموسيقى عن الأخير فتجيبه احداهن) :

هذا هو الفن غدا ثاوياً فينا ورأس الفن فى ذا الوجودْ !

لمّا تغنيت بدا دمعه يجرى لحظ منك فوق الخدودْ

أبناؤه فى الكون قد شُرِّدوا بما أتى الواشى وقال الحسودْ !

الموسيقى يخاطب الفن :

أيها الفن كم ظلمت رجالا ! أخلقوا العمر فيك سمياً وركضا

يهبون الحياة عن طيب نفس ثم تأبى أن تقرض العيش قرضا !

« ٠ »

ذا مُغنٍّ بذا الوجود يغنى وهو يبكى وإن بدا فى غنائهْ

منك يبكى إذ صرت مولاه أو كنـ ـت عظيماً ولم تُزِلْ من عنائهْ

« ٠ »

أو فتى صوّر الوجود فأضحى شعره فيه نشوة السامعينا

لم يجد ما به يكون سعيداً وتولته نقمة الحاسدينا !

« ٠ »

أيها الفنّ كم ظلمت رجالاً فطويت الآمال عنهم بعيدا

بك سادوا على الوجود ولكن أصبحوا بالشقاء فيك عبيدا !

« ٠ »

ورثوا السهدَ فيك والكون وسنا ... ن ولا شيء غيرهم فيك يشقى
لم يراع الوجود عهداً اليهم ... الفن بالمساكين رفقا !

(الفن يوجّه خطابه للفنان) :

أيها الفنانُ لا تأسَ وإن ... عشتَ طول العمر تمثال الشقاءْ !
قسم الحظ سواء فى الورى ... فلك الفن وللغير الثراءْ !
فوق هذى الأرض تسرى ، وسرى ... منك ضوء الروح فى أعلى السماءْ
أنت للأجيال نور وهدى ... كوكب فى ظلمة الكون أضاءْ
ربما أحييت أرضاً بلقعاً ... وكسوت القفر ثوباً من رواءْ
ربما أضحكت يوماً باكياً ... هو لولاك قتيل للبكاءْ
ربما ألفت روضاً مونقاً ... من حديث راح بالنفس وجاءْ
ربما صورت شيئاً لم يكن ... وأتاح الغيب تدعيم البناءْ
ربّ جيش نحو نصر قدتَهُ ... وجيوش منك سارت للفناءْ
أنت نور الله يسعى فى الورى ... هو لولاك من النور خلاءْ
لا يضق ذرعك بالكون الذى ... هو لولا فنّك العالى هباءْ
لك مِن فنك ملك واسع ... دونه يا صاح سعد السعداءْ
لك فن تسعد الدنيا به ... كيف تغدو فى عداد الأشقياءْ ؟!
أيها الفنان لا تأس وإن ... عشت طول العمر تمثال الشقاءْ
أنت للكل مليك وهمو ... رغم ما تبدى عبيد ضعفاءْ !

الفنان :

قد كفى يا فنُّ ما قدّمتَهُ ... حكذا يا صاحِ لحنُ البلغاءْ
أيهذا الفنّ قد خادعتنى ... أنا للكل على رغمى فداءْ
أصبح الفن لشخصٍ بأسٍ ... وكذا الحظ نصيب الأغبياءْ !
أمليك لا يرى من ناصر ؟! ... أصبح الملك جديراً بالرثاءْ !

الفن :

لا تجادلنى فليس الذنب لى هكذا يا صاحبى شاء القضاءْ
حكمة لا يرتقى العقل لها وبها ضلت عقول الحكماءْ !
أيها الفنان لا تأس إذنْ ان عند الله للفن الجزاءْ !

الفنان :

ايهِ يا فنُّ ويا حظُّ فقد ضيعتُ فى ذا الكون ما بينكما

(إحدى بنات الماء تعظ الموسيقى بالصبر ، وتعده بحسن حظه ، ثم تطلب اليه أن يغنى . فلا يذكر شيئاً من الشعر يغنيه . فيؤتى له بشاعر من صميم المقلدين فيعمل له الأبيات التالية ليغنيها) :

عفَتْ دارُها الا من النؤى وحده فما اسطعت تبيان الديار على غَطْش
فلما استقلَّ الركب أرسلت زفرة وما كدت عن رسم بدار اللوى أمشى

(عند ذلك تضحك بنات المحيط فتقول احداهن للشاعر) :

نحن يا شاعر فى دار اللوى ! أين منه الآن عمقٌ للمحيطْ ؟!
عِشتَ فينا مع قوم سبقوا أنت من عهدين يا هذا خليطْ !
لست منا اليوم ، بل أنت لمن دخل الخدر ومالت بالغبيطْ !
قد أفاق الكون من غفلته وأراك اليوم فى نوم غطيط !

الشاعر يردّ عليها :

سنّةُ العرب : انهم جعلوا الشعر هكذا
حبذا دارة اللوى حبذا النؤى ، حبذا !
ذى معان حفظتها كُنَّ للقول منفذا !

(يشتد اللجاج والخصومة ، فيقول أحد أبناء الماء) :

دعوه عسى الأيام تصلح شأنه فيعلم ان العصر يوماً له حكم

الشاعر :

أراكم تريدون القريض مهلهلا لعمر إلهى ان ذاك هو الظلم

احداهنّ للشاعر :

أيها الشاعر مُتْ والحقّ بمن عاتبَ الاطلالَ في سفح اللوى !
أنت فينا ثاوياً مبتعدٌ قد غدا مثواه في كف النوى !

الفن للشاعر :

أيها الشاعر جددني فقد وهن العظم وشاب الرأس مني
لا ترونى لزمان قد مضى كل عهد كان مخلوقٌ لفنّ
لم أكن وقفاً على سقط اللوى لِمَ لاتذكر بي جنات عدن ؟

(الفن يخاطب الموسيقيّ متعجباً من ذلك الشاعر مردّداً ألفاظه عن الفنان) :

أيها الفن كم ظلمت رجالا بيَ سمّوا ظلماً وقد ظلموني !
أيها الفن كم قسوت على من أخلقوا العمر فيك ! قل أخلقوني !
جددوني تروا شبابي غضّاً إن عندي التقليدَ ساحُ المنونِ

« ٠ »

(بنات البحر يرقصن ويغنى لهن الموسيقى نغماً توقيعياً) :

هل لصبٍّ متيم من وصالِ
عصف الحب بالفتى والليالى

« ٠ »

سائلوا النجم في الدجى عن غرامي
وعن القلب كم غدا ذا هيام

« ٠ »

زهرة البحر تيمت كلّ قلبِ
درة الموج شرّدت كلّ لبّ

« ٠ »

تحسر الموج عن ضياً كالموجِ (١)

(١) المقصود جسمها

وهى من حسنها غدت فى الأوج

« ٥ »

(وعند ذلك يتقدم أحد أبناء الماء وكان عاشقاً لاحدى بنات المحيط فيقف بازاء احداهن ويتضرع قائلاً اليها راكعاً) :

(هو) : أيها الناقمون بالأمس منى !

(هى) : لست منا ولو تذوب اعتذارا !

(هو) : وبرغمى ما كان !

(هى) : ليس برغم بل عن الحب قد اردت اصطبارا

(هو) : أيها الناقمون بالأمس منى !

(هى) : همت بالانس

(الموسيقى) : أصبح الانس عارا !

(هى) : كيف لا والوجود فيكم خداع ؟ فيكم الحقد فى الصدور توارى

إن يكن فى الهوى خداع وفى أضرم الله فى المحبين نارا !

(يخاطب الموسيقى ذلك العاشق بقوله له سراً) :

الموسيقى — بمن مِنَ الانس همتا ؟

(ابن الماء العاشق) : بمن ضُحَّى تيمتكا !

الموسيقى : كلا ففيها وفاء

(العاشق) : وانها خدعتكا !

(هنا يذهل عقل الموسيقى إذ يرى أن صاحبته خانته بأن عشقت ابن الماء ، فيشعر بيد خفيفة لاحدى غادات المحيط ـ وهى التى يحبها ابن الماء العاشق وتضرع اليها كما سبق ـ تغمزه غمزاً خفيفاً ثم تقول له) :

هام بى وهو غادرٌ فأنا اليوم غادرهْ

دَعْك ممن هفا لها انها منك ساخرهْ

هو فى الطبع مثلها ماكر نال ماكرهْ !

(ثم تقبله وتأخذه بين ذراعيها قائلة) :

أنت دنياىَ فى الورى !

(هو) : أنتِ دنيا وآخرهْ !

(هنا يخرج ابن الماء العاشق فيقتل صاحبته الانسية ثم ينتحر ، ويعرف الموسيقىّ الخبر فيردد لحنه) :

خبرونى يا بنات الماء ما عن حبيبى عندكم شاعَ وذاعْ
يا بنات الماء فيكنّ الوفا يا بنات الانس فيكنّ الخداعْ !

« • »

(يهذى الموسيقى بهذه الأبيات ويطوب لحبه الجديد ، فيسمع لفظه وضجيجه فى البحر حوت عظيم فيأتى قائلا) :

سمعت بإنسىٍّ غدا فى دياركم وبى اليوم شوقٌ صارخ لدم الانس !
ومن عهد ذى النون المبارك لم أجد بدًا البحر كالانسان شيئاً لدى نفسى !

(احداهنّ للحوت وهن يضحكن منه) :

يا حوتُ حسبك ! هذا الضيف صاحبنا فينا أقام لأن الانس قد فسدا
قضى لياليه فى يأسٍ وتجربةٍ وكل يوم يرى من عيشه نكدا
تطلب الرزق فى كل الاماكن أو سرى مع الشمس لم يترك بها بلدا !
يجرى على الموج موجٌ من مدامعه فأزبد الموجُ لما شاهد الزبدا ؟
ما ذا تريد وقد ضاق الوجود به ؟ ألا يرى فى نواحى ملكنا سندا !
يا بؤس للفن ! كم ضحى بشيعته لا يعرف الفن لا أهلا ولا ولدا !

(الحوت يجيب) :

منى السلام على الانسان علمه رب البرايا ، وأضحى شرّ ماوجدا
ضاق الفضاء به فانساب من ألم يهوى الى الماء نحو الموت معتمدا
ملك عريض وأرض غير ضيقة ضاقت على المرء لما فارق الرشدا

(ثم يمضى الحوت غاضباً لأنه لم يتمكن من أكل ذلك الموسيقى ويقف جانباً ، وهنا يقدم ابن الملك ويلمح الحوت فينشد القيان ما يأتى ترحيباً به وزفافاً للعروس) :

أسفر البدرُ المنيرْ مرحباً يا ذا الأميرْ
لك عرش الثلج والمو ج مع التاج الكبيرْ
لك درّ البحر والمر جان والخير الوفيرْ

« • »

يا عروسَ الماء هيا قبلى بدر التمامْ
هو نور الموج إذ يط غى على الموج الظلامْ
يا بنات الماء قولوا أيّد الله الهمامْ

« • »

ملك البحر يلتفت الى الأنسى فيقول :

أوَ مخلوقٌ غريبٌ فى ثنايا الموج وافَى؟

الموسيقى :

جئت يا مولاى كى أحـ ـي بترنيمى زفافا

هنا يأمره بالغناء فيغنى :

قلْ لوجه الصبح هل تسفر لى ـ ـ ثنايا الليـل والناس نيامْ
فرّت الأعين لما شاهدت وجه ذاك الصبح يبدو فى الظلامْ

(هنا يطرب الملك أشد الطرب فيمنح الموسيقى الحوت قائلا) :

وهبتك هذا الحوت خذه مطية لترقى به فى الموج أو تصل العمقا

الحوت همساً :

سلام على الانسان أصبح حاكمى ! ألا أيهـا الانسان بى فابتغ الرفقا
أأضحى رفيقاً بعد أن كنت سيداً ! كـذا من يردْ أكل الورى يلتق الرقا !

« • »

الحوت :

ألا انه فى البحر أضحت مظالمٌ فذا الـكون صار الظـلم من طبعه خلقا

على شاطىء الأمواج تلقى ظلامه وفى طيها - تلقى من الظلم ما تلقى
وفى كل هذا الكون للظلم شيعة فمن ظلموا غرباً ومن ظلموا شرقاً !

« • »

(يركب الموسيقى وصاحبته الحوت)

فيقول الموسيقى :

طاب عيشى وراق لى رقّ أو راق لى الزمان!

صاحبته :

إن نبا الحظ بالفتى عندنا يلتقى الأمانْ!

عبد الغنى الكتبى

سهر الدمع بعينى

نوّحى يا طيرُ واسجعْ يا حمامْ فوق غصن البانْ — بانْ — دمعى
واستعيرى أدمعى وابكى الغرامْ فى غنى الألحان - حانْ - سجعى !

« • »

حرتُ فى قلبى الشقىّ الخافقِ من جوى الآلامْ - لامْ - حبى !
هكذا تمضى حياة العاشقِ والهوى إلهامْ - هامْ - قلبى !

« • »